إستراتيجيّات طلبة يهود في إعادة إبراز تفوّقهم القوميّ داخل جدران الأكاديميّة

إبراهيم فريد محاجنة*

حقل الدراسة: محاضرون عرب وطلبة يهود في حرم أكاديميّ جرى تأميمه

ليس بمعزل عن مكانة أبناء الأقليّة العربيّة، يسود "الـمُناخ البارد" بل القارس تجاه العرب أيضًا داخل المؤسّسات الأكاديميّة في إسرائيل، كما بيّنت الدراسات، وبخاصّة إثر تاريخ إقصائيّ طويل للعرب وتوجُّه معلَن في الإغداق على اليهود بالامتيازات الحصريّة: التقويم الأكاديميّ؛ المناهج الدراسيّة؛ اللغة؛ الثقافة؛ التفوّق العدديّ في كلّ من أعضاء هيئة التدريس والطاقم الإداريّ.

يجري في "الـمُناخ البارد" لمؤسّسات التعليم العالي، غالبًا، أوّل لقاء مكثّف بين شبّان يهود وعرب. فالمؤسّسات الأكاديميّة هي من الأماكن النادرة في المجتمع الإسرائيليّ التي يجتمع فيها اليهود والعرب كمتساوين، رسميًّا، كونهم طلبةً. في معظم الحالات الأخرى، يكون اجتماعهم غير متماثل وغير متكافئ، لوجود العربيّ أصلًا في وضعيّة دونيّة. المثير للاهتمام هو كون مؤسّسات التعليم العالي من الأماكن القليلة في المجتمع الإسرائيليّ التي يكون فيها للعربيّ (المحاضر) القوّة والسلطة على "اليهودي السيّد" (الطالب). وعليه يُطرَح السؤال: ماذا يحدث في هذا اللقاء الفريد؟

سؤال البحث

تسعى هذه الدراسة الرائدة إلى وصف وتحديد خصائص وتحليل محاولات طلبة يهود لإعادة إنتاج تفوُّقهم القوميّ أمام الـمُحاضر العربيّ داخل جدران الأكاديميّة الإسرائيليّة.

إجرائيًّا، تجيب الدراسة عن سؤال مركزيّ واحد: كيف يصف المحاضر العربيّ سلوكيّات الطلبة اليهود تجاهه مقارنة بزملائه المحاضرين اليهود أو بخلاف تعامل الطلبة العرب معه خلال المحاضرات، والساعات المكتبيّة، ولقاءات عابرة، وفترة الاختبارات /تقديم الوظائف، والعطل والأعياد، والمناسبات أو الاحتفالات بمختلف أنواعها؟

طريقة البحث واختيار العيّنة

جرى الاعتماد على المنهجيّة الكيفيّة التي تلائم "تحليل السياسات" من حيث الأخلاقيّات والحقل والأدوات. اخترنا "دراسة حالة" المحاضرين العرب الذين يعملون في أربع كلّيّات: كلّيّة العلوم الإنسانيّة؛ كلّيّة المجتمع؛ كلّيّة الخدمة الاجتماعيّة؛ كلّيّة الحقوق -وذلك في ثلاث قنوات من المؤسّسات الأكاديميّة: الجامعات؛ الكلّيّات الأكاديميّة الجماهيريّة المموَّلة؛ الكلّيّات الأكاديميّة الربحيّة بإشراف لجنة الموازنة والتخطيط في مجلس التعليم العالي.

أداة البحث ومصادر المعلومات

استخدمنا "المقابلات نصف المبنيّة"، حيث توجّهنا إلى 74 محاضرًا عربيًّا (نحو 92.5% من جمهور البحث)، وقابلنا عمليًّا 56 محاضرًا (76%) يحملون ألقاب الدكتوراة والأستاذيّة، ومنهم محاضرون مؤقّتون (من الخارج)، ومنهم مَن يعملون في وظيفة من غير تثبيت وآخرون مثبّتون، ومنهم محاضرون حديثو العهد وقدامى. هؤلاء المحاضرون مسلمون ومسيحيّون ودروز، رجال ونساء، وأعمارهم تتراوح بين الثامنة والثلاثين والثامنة والستّين يعملون في جميع التخصّصات داخل الكلّيّات الأربع المذكورة أعلاه.

وُجّهت أسئلة مفتوحة إلى المشاركين في البحث أتاحت لهم إجابات شاملة وعميقة حول سلوك الطالب اليهوديّ تجاههم وتفسيرهم لهذا السلوك. الأسئلة كانت موحَّدة لكلّ المشاركين. وقد جرت جميع المقابلات باللغة العربيّة، لغتهم الأمّ.

النتائج

عمومًا، لقد عبّرَ المحاضرون العرب في إسرائيل عن ثلاث وجهات نظر حول كيفيّة تعامل الطلبة اليهود تجاههم: عدد قليل (11%) يرَوْنَ أنّ الطالب اليهوديّ يتعامل معهم تعاملًا مشابهًا للطلبة الآخرين. ثمّة قسم آخر (13%) أشار إلى أنّه يُعامَل معاملة مختلفة نوعًا ما، لكنّها لا ترقى إلى أن تكون بيّنة على أنّها مرتبطة بقوميّته العربيّة. أمّا غالبيّة المحاضرين العرب (76%)، فإنّهم يتذمّرون من معاملة غير لائقة أكاديميًّا لمجرّد كونهم "عربًا".

مجموعة من الطلبة اليهود، اشتدّ عودها في الأعوام الأخيرة، تصارع المحاضر العربيّ طمعًا في استعادة "الملْكيّة" الحصريّة للحيّز الأكاديميّ بتجلّياته. استغلّ هؤلاء الطلبة اليهود مكانة المحاضر العربيّ كأحد أبناء أقلّيّة داخل حرم أكاديميّ صهيونيّ جرى تأميمه لإعادة إنتاج تفوّقهم القوميّ. وعليه، فإنّهم ركنوا إلى استخدام إستراتيجيّات متعدّدة بغية تجريد الأكاديميّ العربيّ من قوّته المتمثّلة في سلطته الأكاديميّة الشرعيّة، سعيًا إلى دحره في مكانته الهشّة كمواطن من الدرجة الثانية.

لعلّ أهمّ ثلاث إستراتيجيّات يستخدمها الطلبة اليهود في عملهم **كأفراد** لتحقيق ذلك هي:

أوّلًا- تهميش المحاضر العربيّ من خلال الاستئناف على سلطته؛ وهو ما يمكن رصده في عدّة سلوكيّات، أهمّها: الدخول متأخّرًا إلى المحاضرات غير الصباحيّة كنوع من التحدّي؛ الدخول والخروج أثناء الحصّة كنوع من الاستخفاف؛ عدم الانتباه إلى المحاضر خاصّة في المساقات الّتي حضورُها إلزاميّ؛ استنفاد حقّ الغياب ضمن المقبول أكاديميًّا كنوع من التهرّب من الالتقاء بالمحاضر العربيّ؛ تناول مقرمشات التسالي بِنيّة الاستفزاز، إثارة الإزعاج في غرفة التدريس كمؤشّر على عدم السيطرة؛ عدم الالتزام بالواجبات الأكاديميّة لاعتبارات كَيْديّة؛ توجيه انتقادات علنيّة بالذات على استخدام المحاضر للّغة العربيّة؛ الاعتراض على إدارة المحاضر للمساق.

ثانيًا- الشرطيّة (ومنها المعرفيّة) للتشكيك في مهنيّة المحاضر العربيّ، نحو: الإيماء إليه بالتمييز العنصريّ الخفيّ؛ الانتقاد العلنيّ المشحون بالتمييز؛ تسييس مقولة أكاديميّة؛ استئناف على معطيات علميّة وكأنّها غير دقيقة؛ انتقاد أطروحات أكاديميّة وكأنّها غير موضوعيّة؛ التساؤل بشأن جدوى المادّة التي تُدرَّس؛ اختبار مدى التحكُّم بالمادّة العلميّ؛ الاستهزاء

بكلّ ما يخصّ إتقان المحاضر للغات أجنبيّة؛ عدم تقديم الشكر أو المديح والتهجُّم بواسطة الملاحظات الكلاميّة في استطلاع تقييم المحاضرين؛ ادّعاءات التقصير بأداء الواجب؛ إذاعة الشائعات ذات العلاقة بعروبته؛ الاستئناف على العلامات كنوع من التشكيك بالنزاهة.

ثالثًا- وصمه بالغريب والآخَر من خلال: وضع هالة من التقدير على أنّ المحاضر العربيّ مختلف عن أبناء جلدته؛ الترويج لمقولات توحي بأنّه آخَر من ناحية قوميّة /طبقيّة /إنسانيّة؛ التقصّي بشأن آراء المحاضر العربيّ في قضايا خلافيّة؛ ضمّ مساقاته الاختياريّة إلى قوائم سوداء؛ التفوّه بتصريحات تهجُّميّة حول الوطنيّة (فلسطينيّ) والقوميّة (عربيّ) والطائفيّة (مسلم - مسيحيّ - درزيّ)؛ الاستخفاف به -مثلًا- خلال ساعات الاستقبال (إعلان نيّة الحضور في غضون وقت قصير أو دون تحديد موعد؛ استغلال المحاضر لصالح مساقات أخرى؛ طلب الاستشارة المهنيّة المجّانيّة)؛ التنكّر له في لقاءات عابرة غير رسميّة؛ التقحّم بحماية مفْرطة له "وكأنّه لا حول له ولا قوّة"؛ مراقبة سلوكه في مناسبات ذات طابع قوميّ كمناسبة الكارثة؛ تجاهله في حفلات التخريج؛ عدم تقديم المعايدة له؛ التفوّه بمقولات أو انتهاج سلوكيّات موجَّهة ضدّ طلبة عرب كنوع من تذكير المحاضر العربيّ بأنّه ينتسب إلى مجموعة متخلّفة أو تابعة.

كمجموعة، ثمّة طلبة يهود يمارسون ثلاث إستراتيجيّات، وهي: التكتُّل والتنسيق المسبق؛ محاولة الاستحواذ على الحيّز العامّ؛ الاستعانة بالهيئات الطلّابيّة ضدّ المحاضر العربيّ.

وقد يستنجد طلبة يهود بالإدارة بمختلف مركّباتها ضدّ المحاضر العربيّ مستغلّين إشكاليّات تتعلّق بهُويّته العربيّة، على نحو ما يلي: التقدُّم بطلبات قد تخالف نُظُم المؤسّسة الأكاديميّة (نحو: رفض التعلّم لدى المحاضر العربيّ)؛ التعبير عن توقّعات قد تخالف روح المؤسّسة الأكاديميّة (نحو: الامتناع عن إنجاز مهامّ سويّة مع طلبة عرب)؛ التقدُّم بشكاوى تخصّ هُويّة المحاضر العربيّة (نحو: تحريضه على رموز الدولة؛ تمييزه ضدّ طلبة يهود؛ انتقاده للمجتمع الاسرائيليّ؛ عدم موضوعيّته في طرح الموادّ) عدم دقّة المعلومات والاشمئزاز من استخدام مصادر عربيّة؛ المطالَبة بامتيازات تخالف اتّفاقيّة العمل المكتوبة في خطّة المساق.

النقاش

يترعرع الطالب اليهوديّ في ظلّ ديمقراطيّة "جمهوريّة" تميّز بين نوعين من المواطَنة: المواطَنة الليبراليّة للعرب والجمهوريّة لليهود. وفي حين يتمتّع اليهود والعرب رسميًّا بحقوق مدنيّة متساوية، اليهود فقط يستطيعون ممارسة مواطَنتهم من خلال المشاركة في "الصالح العامّ". وعليه، فقد ذوّتَ الطالب اليهوديّ رغمًا عنه السياسةَ الثنائيّة للمؤسّسات الحاكمة داخل إسرائيل الّتي تمنح الامتيازات للمجتمع اليهوديّ وتخلق فصلًا عنصريًّا متغلغلًا بين مجموعات سكّانيّة تتلقّى كلّ منها حزمًا مختلفة من الحقوق على أساس قوميّ - دينيّ. معنى هذا أنّ الطالب اليهوديّ يدخل الحرم الأكاديميّ مع قناعات راسخة أنّ القوميّة لها وزن كبير في جميع مجالات الحياة -بما فيها التعليم العالي.

البنْية التحتيّة للواقع غير المتكافئ في إسرائيل، بما في ذلك التعصُّب العرقيّ اليهوديّ والعزل والتفرقة والتمييز، قد تغلغلت أيضًا في مؤسّسات التعليم العالي، لكونها غير منقطعة عن السياق الاجتماعيّ الأوسع، بل هي مغروسة فيه.

لذا، يجري نسخ الصراعات والتوتّرات بين اليهود والعرب من خارج مؤسّسات التعليم العالي التي تؤثّر على العلاقة بين الطلبة أنفسهم وأعضاء هيئة التدريس.

يتربّى الطلبة اليهود داخل مُناخ تعليميّ أكاديميّ صهيونيّ. وبذلك فإنّهم يتمتّعون بقوّة مضاعفة بسبب قوميّتهم وبسبب عمليّة "التحرير" المتسارعة للتعليم العالي التي نشهدها في الأعوام الأخيرة. وبناء عليه، قد يكون الاستمرار في عمليّة تأميم الـمُناخ الأكاديميّ في مجالات جديدة ليست واعية، كون الامتيازات التي يعملون من أجل الحصول عليها تبدو لهم طبيعيّة ومفهومة ضمنًا. معنى هذا أنّ العنصريّة التي تتجلّى في إعادة إنتاج (استنساخ) الطلبة اليهود لتفوُّقهم القوميّ داخل الأكاديميّة تُعتبر اعتياديّة ومن الأمور المسلَّم بها، وذلك باعتبارها متجذّرة في عمق تاريخ المؤسّسات الأكاديميّة الإسرائيليّة، التي نمت وتطوّرت على مبدأ تفضيل اليهود كطلبة ومحاضرين وإداريّين.

الطالب اليهوديّ متأثّر من كون مؤسّسات التعليم العالي "معجونة ومخبوزة" بتفضيل اليهود ضمن عدّة مستويات: قواعدهم ومعاييرهم وقوانينهم ونظمهم -وكلّ ذلك راجع إلى الإنشاء تاريخيًّا الحاصل من قِبَل مجموعة اليهود ولخدمة اليهود. حتّى لو كانت المؤسّسة غير عنصريّة صراحة، فإنّها حتمًا تحمل في داخلها تاريخ الإقصاء القوميّ الذي لا ينتهي تلقائيًّا.

من المهمّ إسماع الصوت الداخليّ للطلبة اليهود داخل قاعة المحاضرات وأمام محاضر عربيّ يجرؤ على تقديم بيانات دراسيّة ميدانيّة تتعارض مع سرد الصهيونيّين. كما هو موضّح في هذا المقال، سلوكهم يعكس نضالهم لحماية إنسانيّتهم المرهفة المزعومة وكذلك لشعورهم بالتهديد. في إطار قضيّة النضال حول ادّعاء الإنسانيّة، لدى الطلبة اليهود خبرة واسعة في نزع الشرعيّة ونزع الإنسانيّة من الآخر، أي المحاضر العربيّ في هذا السياق. كذلك، يتشبّث الطلبة اليهود بأيّ احتمال من الخطر، حتّى المتخيَّل، كما لو كان تهديدًا وجوديًّا. التشبّث بالتهديد الوجوديّ هو في كثير من الأحيان أداة يستخدمها اليهوديّ المهيمن للحفاظ على قوّته وتبرير سيطرته. ولعلّ التهديد المركزيّ، في سياقنا، هو على الهيمنة بالرغم من أنّ احتمال تغييره صعب المنال. سلطة الأساتذة العرب في الأكاديميّة الإسرائيليّة تخلق شعورًا بتهديد وجوديّ (الهيمنة) لدى طلبة يهود -وبخاصّة في المرحلة الأولى من اللقاء المشترك.

في المعتاد، يوافق الطلبة اليهود على الحاجة إلى المساواة، ولكن تبيّن أنّه من الصعب التخلّي عن السلطة الفعليّة مقارنة بسهولة التنازل عنها على الصعيد النظريّ والخطابيّ. فالمساواة الفعليّة مستوعَبة كتهديد لكونها تجرح المنظومة القيميّة الأخلاقيّة للهُويّة الوطنيّة بحسب "الرواية الصهيونيّة" حول العرب. التغيير يحدث تدريجيًّا والمرحلة الأكثر حسمًا هي التي تكون في الانتقال من مستوى الإنكار إلى الاعتراف بوجود مشكلة حقيقيّة بين اليهود والعرب كمواطنين متساوين في إسرائيل ممّا يتناقض مع الرواية الصهيونيّة.

الطلبة اليهود هم ضحيّة ثقافة الهيمنة الدارجة في إسرائيل. وسلوكيّاتهم هي نتاج للتربية التي تلقَّوْها من مختلف وكلاء التنشئة الاجتماعيّة ونتاج الشرعيّة التي أُعطيتْ لهذه السلوكيّات، علنًا أو بالخفية داخل مؤسّسات التعليم العالي. لذا، السؤال هو: ما الذي يجب فعله لتغيير هذا الوضع غير المرغوب فيه، ومَن سيقوم بذلك؟

ماذا بعد؟

تُبيّن التجربة أنّ مؤسّسة التربية والتعليم استجابت لشكاوى مماثلة من قِبَل مهنيّين عرب في مجال التدريس بثلاث آليّات: الأولى "عدم الاعتراف" الذي يرمي إلى تجاهل أو تأجيل أو تأخير أو الاستخفاف بدعاوى المهنيّين العرب؛ الثانية "الاعتراف الرخيص" الذي ينزع الشرعيّة من مطالَبات الأقلّيّة العربيّة بواسطة تحويلها إلى إلحاح أو مصدر إزعاج، تمكن

معايشته والتكيّف معه. الثالثة "سياسة الاستخفاف" الّتي تقرّ بوجود المشاكل ولكنّها لا تعترف بالحلول اللازمة أو أنّها تجعل من تحويل الموارد المطلوبة إلى إضافات بطيئة وتدريجيّة (Incremental) من خلال تدابير جزئيّة ومتفرّقة تبقي الوضع غير المرغوب فيه على ما هو عليه. والسؤال الذي يطرح نفسه: ما هي الإستراتيجيّة الّتي ستتبنّاها المؤسّسة الأكاديميّة مع واقع المحاضرين العرب الموصوف أعلاه الذي لا يتماشى بتاتًا مع أهمّ مبدأين يحرّكان الأكاديميّة وهما: التحصيل /الإنجاز والحرّيّة الأكاديميّة؟

وإذا كانت ردّة فعل المؤسّسة هي من ضمن الخيارات الثلاث المذكورة أعلاه (التجاهل؛ التكيّف مع وضعيّة الإزعاج؛ التعاطي التدريجيّ)، فهذا يقود إلى طرح سؤالين آخرَين؛ أوّلهما: هل هناك حاجة إلى منظومة حُكميّة جديدة (Governance) داخل مؤسّسات التعليم العالي؟ الإجابة تتمثّل في استمراريّة النظام الحاليّ حتّى الطرف الآخر المتمثّل في الحكم الذاتيّ المؤسّسيّ المستقلّ للعرب في إسرائيل في المجال الأكاديميّ. وعندئذ يُطرح السؤال الثاني: هل المؤسّسات التمثيليّة للمجتمع العربيّ -كلجنة المتابعة العليا للجماهير العربيّة في إسرائيل، على سبيل المثال- تسعى إلى إعادة المطالَبة (Reclaiming) باستعادة نصيبها من المسؤوليّة (الحاكميّة) للتعليم العالي؟

- **د. إبراهيم فريد محاجنة مُحاضر في قسم الخدمة الاجتماعيّة في الكلّيّة الأكاديميّة في صفد.**